الدرس السـادس/ ديـوان محمد العيـد آل خليفـــة

أولا/ التعـريـف بالشاعـــــــر:

يعتبر من أبرز رجالات جمعية العلماء المسلمين، ولد **(محمد العيد)** في مدينة **(عين البيضاء)** بولاية(أم البواقي) بتاريخ (28 أوت 1904م) من أسرة دينية عريقة، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وتعلم بمدرستها الابتدائية ثم انتقل إلى(بسكرة) سنة(1918م)حيث تابع دراسته. وفي(عام 1920م) تاقت نفسه للذهاب إلى**(تونس)** كي ينال شهادة(التطويع) من جامع**(الزيتونة)** الذي كانت له شهرة دينية وثقافية في المغرب العربي كمعقل إسلامي عربي قديم. ثم عاد إلى(بسكرة)أرض وطنه**(الجزائر)**، بعد عامين قضاهما في جامع الزيتونة. ولم يجد(محمد العيد) بدّا من الاندماج في هذه الحياة الجديدة،فرشحه الشيخ (عبد الحميد بن باديس) لمنصب مدرّس في مدرسة (الشبيبة الإسلامية) بالجزائر العاصمة، ثم انخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية، ترك العاصمة وعاد إلى بسكرة سنة(1940)، ومنها إلى(باتنة) للإشراف على مدرستها العربية، ومن(باتنة) انتقل بأسرته إلى (عين مليلة) حيث بقي ثماني سنوات مديرا لمدرستها الحرة الشعبية. حيث عاش يناضل بإيمان الواثق بالانتصار لنفسه على الحياة القاسية ولشعبه على الاستعمار والاضطهاد. وعندما اندلعت الثورة التحريرية(نوفمبر 1954)، أُلْقيَ عليه القبض وزج به في السجن، لتحدد في الأخير إقامته الجبرية ببسكرة حتى غاية الاستقلال. أمّا بعد الاستقلال فقد لازم بيته متعبدًا ذاكرًا زاهدًا في الدنيا قليل المشاركة في النشاطات حتى وافته المنية سنة (1979) بباتنـة ودفن ببسكرة.

ثانيـا/ محـاور الديـوان (مضـامينـه):

يعدّ **ديوان(**محمد العيد آل خليفة) من بين التراث الأدبي الذي حفظ للجزائر كيانها، ودعم بنيانها، وقد لعب شعره دورًا هامًّا في المجالات النضالية والثقافية والاجتماعية والدينية في حياة الشعب الجزائري والشعوب العربية عامة. إنّ المتصفح للديوان يدرك أنّ أهم مواضيع تطغى على شعره وباتت ملمحًا مهمًّا وتسيطر على اغلب قصائده، تتمثل في هذه المحاور الشعرية الرئيسية: إسلاميات وقوميات، أخلاقيات وسياسيات واللزوميات، والمراثي، وأدبيات وفلسفيات، والإخوانيات والثوريات... .

1/ إسلاميات وقوميات: إنّ صلة الشاعر بالدين كانت أقوى، كانت أقوى من أن تقاوم وأَوْضح من أن تكون محل مناقشة، والمتصفح لشعره يلاحظ من أول وهلة على أنّه يستلهم كثيرا من خواطره وأفكاره من

رصيده الديني وبصورة عامة لا تخلو قصيدة مهما كان غرضها من أثر الدين فيها،يقول في قصيدة/**هذيان آشيل:**

هيهـات لا يعتري القرآن تبديـل وإن تبـدل تـوراة وانجيـــل

قل للذين رموا هذا الكتـاب بمـا لـم يتفـق معـه شـرح وتأويـــل

فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا في القول هيهات لا تجدي الأباطيل

آياته بهـدى الإسلام مـا برحت تهدي الممـالك جيلا بعـد جيـل

ما بـال آشيل يهذي في مقالتـه كحالم راعـه فـي النـوم تخييـل

ما بال آشيل يزري المسلمين وهم غر العـرائك أنجـاب بهـاليـل

أفكـارهم بهدى القـرآن ثاقبـة فلا يخامـرها فـي الرأي تضليـل

ويقول في قصيدة/ العروبة أمتنا الكبرى:

إنّ العروبـة تستعد لنسف مـا بذر اليهـود لها من الألغـام

مـا ضم مؤتمر العروبـة شملها إلا ليعلن عـن فـداها الحامـي

قـد أرعب العرب اليهـود بعقـده ومحـا الإمام خـرافة الحاخـام

سنرى فلسطين العزيـزة مثلمـا كـانت بمثابة حرمـة وذمـام

وطـن العروبـ ـة كله وطـن لنـا فـي مصر أو بغداد أو في الشام

وليزدهر وطـن العـروبـة وليدم مجد العروبـة فيـه والإسـلام

2/ أخلقيـــــات: لقد نظم قصيدة بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالمعهد الإسلامي بمدينة(باتنة) صيف سنة(1965) بعنوان/ **(هذه قمة الفُتُوى):** يعرض فيها حالة الشباب الواقع في ظلال الانحرافات ناصحًا راشدًا إياه إلى الطريق المستقيم:

إنّمـا يسعد البـلاد الشباب ذو حفـاظ لعرضـه وصيـان

لا شباب باع الحياة وأمسى بين حان يحسو الخمر ودخان

أو شباب على التراث تعدى فتردى فـي هـوة الكفـران

صَدَّه عـــن تراثـه كـلّ رأي أجنبي فَتـاهَ فـــي الوديــان

أو فخذ لي ما كان منها شرابا مستطابا لشعبـــي الضمـــآن

وتَعَلَّم مـــا شئته من علـــوم وفنـــون بحكمـــة واتـــزان

3/ اجتماعيات وسياسيـات: يتضمن هذا المحور كثيرا من القصائد ذات المدلول السياسي والاجتماعي فبالنسبة للقضايا الاجتماعية، فإن(محمد العيد) شاعر اجتماعيي، دقيق الملاحظة، مرهف الإحساس، فنافح عن القيم الوطنية والاجتماعية لشعبه، وجعل موضوع شعره هو الشعب:

أيّها الشعب أنت موضع شعري ..... وشعوري لا زينب والـــرباب

لا تلمني علـــى اطّرَاحي للشعر..... فعـذري مستوضح منجـــاب

أيّهـــا التاعبون في عمل الخير..... ستأتـــي بأجـرها الأتعـــاب

أمّا بالنسبة **(للقضايا السياسية):** فقد حفل شعره بالقصائد السياسية المحضة، والمقطوعات الوطنية، فقد تحدث عن المؤتمر الإسلامي، وعن مأساة الثامن ماي (1945)، كما عبر عن مأساة فلسطين، وعن مصر والعدوان الثلاثي عليها، وعن استقلال ليبيا والسودان.. .

يقول في قصيدة بعنوان**(يا فرنسا)** والتي نشرت في مجلة الشهاب(جويلية1936):

يـا فرنســا بك الجــزائر لاذت و أكنت تلك الولاء الشديـدا

فـاز فيك(اليسار) فاليوم لا عسر أليس اليسـار فـألاً حـميـدا

فـاز فيك (اليسار) فالأمـة اليوم ستفدى بما عسى أن تفيـدا

أجمعت أمـرها لمؤتمـر الشعب فـوفتـه مهرجـــانا وعيـــدا

صرخ الشعب فيه صرخته الكبرى ونـــاداك يستـــرد الفقيـــدا

يا فرنسا ردي الحقـــوق علينـا وأقلي الأذى وكفي الوعيـدا

نحن رغم الطغاة في الأرض أحرار وإن خالنـا الطغـاة عبيـــدا

4/ اللزوميـــــات: وهي عبارة عن مقطوعات ومواعظ وخواطر، أو هي مواقف من الناس والحياة والكون، كما هو في هذه العناوين(جولة طرف ـ الحق ـ سر الكون ـ الناس ـ ابن آدم..).

يقول في قصيدة بعنوان/ (**يا قلب**) والتي نشرت في البصائر (سنة 1936):

تحـــرر وانطلق يـا قلب حينا إلـى كم أنت للشهـــوات فـن

إلـى كم أنت سار تحت ليـل عليك بكـــل غـــاشية يجـن

تطبّب والتمس يـــا قلب بـرءا فلا يرضـــاه لـــي دين وسن

ودع يا قلب عنك من الأماني فجل حديثـها رجـــم وظـــن

5/ الثوريـــــــات: لم يكن الشاعر بعيدا عن طائفة الحركة الوطنية التي تؤمن بأنّ الثورة هي الحل الوحيد الذي يمكّن من استعادة الحق المغصوب. فالقراءات المتأنية لشعره، يلفت انتباهك أن المقاومة في شعره بدأت في المرحلة التي كانت تتطلب إعداد الإنسان كمشروع للمستقبل. وقد انطلق (محمد العيد) من هذه المسلّمة ونستشف ذلك في قصيدة ألقاها سنة(1932) في إحدى حفلات مدرسة(الشبيبة الإسلامية) إذْ يحذر فيها الشعب ويدعوه إلى فتح عينيه والنظر بعيدا لتجنب سهام الصائدين، ونصحه بأن يتخذ من الجبال الشاهقات حصونًا منيعة، تستعصي على العدو، ويقدم نفسه فداء للوطن:

يـــا ابن الحنفية اخلع كـراك فأنـوار صبحـك تتـرى جليـــــة

تجمع من حولك الصـائدون وأنـــا للصـــائديـــن الرميـــــــة

فطر وابن وكرك بين الصخـور مع العصم في الشاهقات العليــة

ونفسك بِعهَـا مـع البائعيـــن كـــرام النفـــوس لبـاري البريـــة

إنّ قلة شعر(محمد العيد) المواكب لثورة التحرير لا يعني توقف قلبه عن الخفقان باسم الجزائر وشعبها وبالاستقلال والحرية، ففي القصيدة التي ألقاها(سنة 1956) بمناسبة استقلال(السودان) كانت الجزائر حاضرة بقوة. تساءل فيها(محمد العيد) عن الجزائر وهل حان وقت تحريرها وتقرير مصيرها كبقية البلدان العربية التي بليت بهذا الداء وتخلصت منه ولم يفته التبشير فيها بحرية الجزائر وباستقلالها، يقول فيها:

نتبـادل القبـلات باستقـــلالـه فرحًا وإن طافت بنا الأحـزان

متسائلين عـن الجزائر هل دنا تحريرها أم حظها الحرمـــان؟

ومتى تقرر كالشعوب مصيرها فقد اقتضى تقريرها الإبـــان؟

ومتى تفـــوز بنعمة استقـلالها فقد استقلت دونها الأوطـــان؟

كما نجده يقول في قصيدة بعنوان/ **صوت جيش التحرير**:

نحن جيش التحرير جند النّضال نحن أسد الفدى نمور النزال

دمـدم الطبل للنفيـــر عثـرنـــا وهززنـا البـــلاد كالزلـــزال

واتخذنـا من الجبـــــال قلاعا تقرع السمع بالصدى كالجبال

فالإذاعـــات تنبئ النّـــاس عنّا بانتصـــاراتنا بكـل مجـــال

وأدرنـــا رحى الـــوغى فانتصرنا وأذقنـــا الأعـــداء مرّ النكال

وقبرنـــــا استعمـــــارهم وفككنا شعبنا مـن سـلاسل الأغـلال

يعبر(محمد العيد) في هذه القصيدة عن إيمانه القوي ـ الذي لا ينتابه شك ـ بقوة جيش التحرير، ولا يستثني نفسه، فهو جزء من هذا الجيش(نحن)، الذي ذاع صيته عبر الإذاعات بانتصاراته المختلفة مخلّصًا الشعب من أسطورة الاستعمار إلى الحرية والاستقلال.

لقد كان شعر محمد العيد صدى للحياة والاستماع إلى همسات الشعب وصرخاته وإلى دموعه وبسماته والتحسس على آلامه وجراحه، وتصوير كل ذلك في شعر يحمل طابعه الحماسي وغيرته على الوطن المنهوب والحقوق الضائعة، كما وجد في الشعب وحركاته وفي نفسه وآمالها منبعًا للشعر الصادق الجميل، ومن ثم غلب على شعره الشعر السياسي والاجتماعي الثوري... وتضاءل الشعر الذاتي.